موضوع الهجرة في رواية «الدروب الوعرة» لمولود فرعون *

The theme of migration in the novel “Les chemins qui montent” by Mouloud Feraoun

أد. بوعلام بطاطاش
جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية، الجزائر
مخبر التأويل وتحليل الخطاب
boualem.betatache@univ-bejaia.dz

ملخص:
تناول مولود فرعون قضية الهجرة في مختلف أعماله الإبداعية حيث أراد تسليط الضوء على هذه الظاهرة المتفشية بكثرة في منطقة القبائل إبّان تواجد الاستعمار الفرنسي بالجزائر، وقد حاول المؤلف إظهار الآثار المترتبة عنها سواء على مستوى الفرد أو على صعيد المجتمع الذي ينتمي إليه الشخص المهاجر. ونلمس في رواية (الدروب الوعرة) رؤية الكاتب وموقفه الخاص بمسألة الهجرة حيث رسم من خلالها صورة قاتمة تبيّن حجم المعاناة التي كان يتكبّدها المغتربون من أجل سعيهم نحو حياة أفضل.

الكلمات المفاتيح: الدروب الوعرة؛ مولود فرعون؛ الهجرة؛ الخطاب الروائي؛ المأساة.

Abstract:
Mouloud FERAOUN addressed the issue of immigration in his various works, wishing to highlight this phenomenon widespread in Kabylie during the presence of French colonialism in Algeria. The author attempted to show the resulting effects, whether at the level of the individual or at the level of the society to which the immigrant belongs. In the novel (Les chemins qui montent), we see the writer's vision and position on the issue of immigration, through which he paints a dark picture that shows the extent of the suffering to which expatriates are subjected in their quest for a better life.

Keywords: Chemins qui montent; Mouloud Feraoun; migration; narrative discourse; tragedy.

*

تاريخ استلام البحث: 2023/08/31	تاريخ قبول البحث: 18/ 09 /2023	تاريخ النشر:18 /12/ 2023

مقدمة:

قامت السياسة الفرنسية على تفقير وتجهيل الجزائريين سواء عن طريق انتزاع أراضيهم[1]، أو عن طريق محاولة طمس معالم هويتهم الوطنية التي يتشبثون بها[2]، فكان لزاما على المثقفين الجزائريين التصدي لمثل تلك القرارات الجائرة محاولين إظهار الواقع الذي يعيش فيه المواطنون البسطاء، وصراعهم اليومي من أجل الظفر بقوتهم اليومي، مما يجعل كتاباتهم تمثل الوجه المغاير للشعارات الإيجابية التي كانت ترددها فرنسا آنذاك، وبالتالي جاءت أعمالهم لتفضح الممارسات القمعية اتجاه المواطنين، وسياسة التفقير المنتهجة، بحكم أنهم ينتمون (إلى المدرسة الواقعية التي تهتم بإلقاء الأضواء على مشاكل المجتمع الحقيقية التي يعاني منها البسطاء كالتعليم والفقر والطموح والتطلع إلى الأثرياء وكيف يعيشون)[3]، فمولود فرعون مثله مثل كاتب ياسين ومولود معمري ومحمد ديب ومالك حداد وغيرهم حمل قلمه لكونه فردا من أفراد المجتمع الجزائري، واستعار لغة الاستعمار ليقول جملته الشهيرة: (أكتب بالفرنسية، وأتكلم بالفرنسية، لأقول للفرنسيين، أني لست فرنسياً)[4]، لقد أراد تصوير الواقع للأوربيين على النحو الذي عايشه هو بنفسه وأراد تصوير المعاناة التي قاساها في حياته، فكانت أحداث رواياته مستمدة من تجربته الخاصة في قريته الصغيرة بأعالي جبال جرجرة، فتمكن بذلك من تصوير معاناة سكان قرى القبائل والظروف الصعبة التي خلقتها السياسة الاستعمارية، خاصة بعد أحداث 08 ماي 1945 حيث (لم يعد هناك مجال لمثل تلك الكتابات المداهنة للمحتل، التي كانت تحاول استرضاء السلطات الاستعمارية، والتقرب من المستوطنين، والعزف على نغمة "الأخوة والمساواة بين الجميع")[5]، فكان وصفه لبؤس الفقراء وعذابهم وصفا حادا يتمّ غالبا من خلال الأوصاف التي يقدّمها عن الظروف الحياتية داخل القرية، وبالتالي تمكّن تصويره للمجتمع القبائلي من أن يأخذ (بعدا عالميا، عن طريق ثروته الثقافية وعمق إنسانيته، فكل المضطهدين والفقراء في الأرض باستطاعتهم أن يجدوا أنفسهم في أعماله)[6] لأنه يعبّر بشكل صادق عن مصير المستعمَرين وفقدانهم لأدنى شروط الحياة العادية، لقد أطلق عليهم صفة (**المعذبون في الأرض**)[7] كسمة راسخة في حياتهم حيث يدورون في فلك الشقاء والمعاناة الدائمة. وفوق ذلك كله كان يسعى إلى تقديم صورة دقيقة وواقعية أثناء حديثه عن المؤسسات والأنظمة الاجتماعية الأمر الذي أدى ببعض الباحثين إلى اعتبار أعماله (مادة من الدرجة الأولى لعلم البشرية والأقوام)[8]، لكونها حاملة لمختلف مظاهر حياة المواطنين داخل القرية القبائلية من معاناة واضطهاد وآمال وأحلام بحياة أفضل.

إن الحصار المادي المفروض من طرف الاستعمار الفرنسي قد أتى بثماره عندما اضطر الكثير من سكان القرى الجزائرية بيع أراضيهم من أجل إعالة أسرهم وغالبا ما كان المشترون لها من موالي النظام الفرنسي، فالمواطن الجزائري وجد نفسه بذلك في مأزق بين نارين: إما بيع الأراضي التي ورثها

عن أجداده أو الهجرة إلى البلدان البعيدة وبالتالي الابتعاد عن عائلته وعن الأراضي التي ورثها عن أجداده، الأمر الذي جعل الروائي يؤكد أن انفصال المواطن الجزائري عن بؤرته لا يتم إلا في حالة العوز والسعي الدائم وراء لقمة العيش.

تتفق إذن رؤى الروائي في مؤلفاته الثلاث (نجل الفقير والأرض والدم والدروب الوعرة) على أنّ الجانب المادي يقف دوما وراء تلك المغامرات التي تفرض نفسها على فقراء القرى القبائلية، والتي غالبا ما تكون نحو وجهة واحدة وهي فرنسا بحكم العلاقة التي تربطها بالجزائر، إلى جانب توفر فرص العمل هناك مقابل ندرتها في مدن وقرى الجزائر، ففي رواية **نجل الفقير**[9] (كانت هجرة رمضان (أب فورولو) قد تمت في ظروف صعبة، تحتم عليه الأمر أن يغادر إلى بلدان أجنبية، بسبب الفقر المدقع، خصوصا بين الأوساط الريفية بسبب سياسة المستعمر. فهجرة عامر أوقاسي رمز الجيل الثاني، بعد الثلاثينات، لا تخلو من الطموح، من أجل تحسين أحوال المعيشة)[10]، وجاءت روايته الثانية (**الأرض والدم**)[11] مبنية أساسا على هذه القضية حيث أوضح المؤلف معاناة الأسر من فقدان أفرادها إلى جانب تصوير مأساة المغتربين مركزا على حالتهم المعيشية الصعبة، ومعرجا في الوقت نفسه على مسألة الزواج المختلط وإشكالية التنصير، مع تسليط الضوء على أزمة الهوية التي طالت الشباب في تلك الفترة، بينما جاءت هجرة عامر في رواية **الدروب الوعرة**[12] التي تعتبر تتمة لرواية **الأرض والدم** كتعبير عن صورة الجيل الجديد المطّلع في المدرسة على الحضارة السائدة في فرنسا والمنعدمة في الجزائر نتيجة عدّة أسباب تناولها المؤلف في الرواية، لكن مولود فرعون اختار أن تكون شخصيته الأساسية مختلفة عن سابقتها في رواية **الأرض والدم**، فهي من جهة مثقفة ومتقنة للغة الفرنسية ومن جهة أخرى رافضة ومتمردة على العادات والتقاليد المتعارف عليها في القرية بحكم كون أمها فرنسية، لذلك نجد المؤلف في هذه الرواية يعبّر بصورة مباشرة عن مواقفه اتجاه السياسة الاستعمارية التي حرمت الناس من الحياة في الجزائر، وحرمت المغتربين من تحقيق أهدافهم على الرغم من محاولتهم الانسلاخ عن بيئتهم ومجتمعاتهم، فجاءت بذلك مسألة الهجرة في رواية الدروب الوعرة معالجة من زوايا مختلفة:

1.فضح السياسة الاستعمارية في الجزائر:

جعل الروائي من الحالة المادية دافعا مباشرا لهجرة الجزائريين إلى فرنسا، مما يبيّن أن الظروف الحياتية السائدة في الجزائر سيئة. وحمّل الاستعمار الفرنسي مسؤولية تدهور الأوضاع الاجتماعية للمواطنين، بفضل سياساته العنصرية المنتهجة، وعلى الرغم من الوعود المتكررة للمستعمر بإصلاح الأوضاع السائدة، إلا أن الروائي قد فقد الثقة تماما في إمكانية تحقّقها، لذلك نجده يعلن عن مواقفه بكل صراحة موجها أصابع الاتهام إلى الحكومة الفرنسية، فهو يرى أن الحكام لم يؤدوا دورهم المنوط لخدمة المواطنين، وبالتالي جلّ المشاكل التي تحدث ناجمة عن تلك السياسة:

(...لقد جدت أمور تدعو إلى الاعتقاد بأن عهد الظلم قد انتهى، إذ وقعت انتخابات واختار الناس بكل حرية أعضاء البلديات وشيوخها وتخلصت القرية من العملاء والجواسيس الذين كانوا رهن إشارة الحاكم الفرنسي.

ولكن يا للأسف الشديد! فإن هي إلا أيام حتى أدركنا أن الأسماء وحدها تتغير، وأن الذين يتناوبون على الحكم أصبحوا عملاء للاستعمار وجواسيس يتصرف فيهم الحاكم كما يشاء) [13].

إنّنا نلمس في هذا الموقف نقدا مباشرا للعملاء وللطريقة التي اعتمدتها السلطة الفرنسية لفرض سيطرتها، فهي لم تعمل إطلاقا من أجل القضاء على الهوة القائمة بين المجتمعين الفرنسي والجزائري، بل كانت تسعى جاهدة على إبقاء الوضع على حاله، فـ(النظام الاستعماري هو المستهدف مباشرة، فرعون يسمي الألم، لكنه لا يذهب أبعد من ذلك) [14]، حيث نجده يوضّح كل العلل التي يعاني منها المجتمع، لكنه لا يقدّم سبل تغيير الأوضاع، بل يحث المواطنين إلى إيجاد الحلول الممكنة التي قد تخرجهم من الحصار المفروض عليهم، فمهمة الروائي تنحصر في الإشارة بشكل دقيق إلى أماكن الداء، وطرح تساؤلات عن آليات معالجته، لقد عبّر بصدق عن (الوضع البشري على هذه الأرض القاسية، على القرى المعلقة على أعالي القمم، والمتشبثة في الأرض، كل واحد يدافع عن نفسه، إنسان، حيوان، طبيعة، كلها تكافح من أجل الحياة، حياة فقيرة... فالفقراء موجودون في كل مكان) [15]، هذه هي الحياة في قرى الجزائر.

2.إشكالية العادات والتقاليد:

ربط مولود فرعون هجرة الشخصية الرئيسية عامر ابن الرومية بمسألة النمط الحياتي المتبع في القرية، حيث صوّره كشخصية متمردة على العادات والتقاليد، لم تجد لنفسها مكانا بين أفرادها على الرغم من إصرارها في الأول على المكوث فيها:

(أصبح لزاما علي أن أكون أحد أبناء إيغيل نزمان، وأن أخلص لبلادي وأن أعتز بأصلي وأن لا أتنكر له. لقد حصلت على مكان في هذه الأرض وأنا مصمم على أن أحتفظ به. وإن الذين يريدون أن يتخلصوا مني من أهالي القرية يعرفون ذلك جيدا.. ولعلهم يقولون في أنفسهم كلما أبصروني بينهم: "ما لنا إلا الصبر") [16].

فالروائي صوّر الشخصية على أنها مختلفة عن سكان القرية، ويرجعون استهتارها بالعادات والتقاليد الخاصة بالمجتمع القبائلي إلى أصولها الفرنسية ومدى تأثيرها على شخصيته، لذلك يرى عامر فيما بعد أن سفره إلى فرنسا بات ضروريا إذ سيحقق له الهناء النفسي بما أنه سيكون في أرض أخواله بعيدا عن العادات والتقاليد التي تخنقه وتقيّد حرّيته، وفي المقابل سيساهم في تحقيق الهناء لأفراد قريته الذين سيسعدون برحيله، حيث تصوّرهم يتبادلون أطراف الحديث بينهم قائلين:

(استرحنا من ولد الرومية وتخلصنا منه.. الله يبقيه في بلاد الكفار، عند أخواله)[17].

لكن عامر لم يمكث إلا أربع سنوات في فرنسا ليعود بعدها إلى قريته، الأمر الذي جعله يتكهّن من جديد تعليق سكان قريته على رجوعه بقولهم:

(سيمضي في عاداته القديمة من التحدي والتشكيك في عقائدنا والاستهتار بديننا وإفساد شبابنا وتضليلهم لأنه هو الذي أصبح يوجّههم إلى سبل الفساد)[18].

مما يوحي أن الشخصية لم تتغيّر بل ظلت ثابتة في مواقفها اتجاه العادات والتقاليد على الرغم من هجرتها.

3.التمييز العنصري:

أعاد الروائي عدم نجاح هجرة عامر إلى تصرفات الفرنسيين اتجاه المغتربين، فهم يعاملونهم دائما على أنهم أناس غرباء حتى وإن حاولوا إتباع النمط الحياتي للأوروبيين:

(صرنا نتعاطى جميع الموبقات من إفطار في رمضان وشرب للخمر وأكل للحم الخنزير)[19].

فالروائي يتحدث بذلك عن جيل من الشباب الجزائري الذي تمكن من الانسلاخ عن كل ما له صلة بالحياة داخل القرية، فهو جيل يختلف تمام الاختلاف عن الجيلين الواردين في روايتي **نجل الفقير والأرض والدم**، لأنهم تمكنوا فعلا من التحرر من كل القيود التي كانت سببا في عدم نجاح الأجيال الأولى في التأقلم مع الحياة في المهجر، لكنهم على الرغم من كل ذلك لم يتمكنوا من التحرر من حقد الفرنسيين عليهم، وبقيت نفس نظرة الازدراء المقدّمة للأجيال الأولى تتابعهم وتلتصق بهم أينما حلوا في أرض الغربة، فالروائي أصبح مقتنعا من أن الشعارات التي تردّدها فرنسا حول المساواة والأخوة والتعايش بين الشعبين الفرنسي والجزائري ما هي إلا شعارات زائفة لا وجود لها على أرض الواقع:

(وهكذا أدركت أن الذين يتظاهرون بأنهم يريدون لنا خيرا يعتبروننا أحط خلق الله)[20].

والتمييز العنصري لا يمسّهم بصفتهم مهاجرين وغرباء عن فرنسا، بل يمسهم لكون أصولهم جزائرية، فالإيطاليون والسويسريون يعاملون بطريقة مختلفة:

(ولتعلموا أيضا أيها السادة أن المعذبين في الأرض بشر كسائر الناس، فلا تعتبروننا بينكم كالوباء الذي يجتاح مدينتكم العامرة. إننا بشر ولا نختلف في شيء عن الإيطاليين أو سكان منطقة بورجونيا أو سويسرا)[21].

ولهذا السبب نجد الروائي يوجه خطابه على لسان شخصيته الأساسية إلى الذين يحملون شعارات الأخوة والمساواة قائلا لهم:

(أنتم ترثون لحالتنا البائسة. ولكن لسنا في حاجة إلى شفقتكم المزيفة لأن شعوركم اتجاهنا ينبعث عن فكرة راسخة تثير الاشمئزاز. بل هي أشد وقعا على النفوس من القمع والإرهاب)[22].

إن التمييز العنصري أمر يعاني منه كل المهاجرين لدرجة أن الروائي لا يجد الموقع الذي يناسب هؤلاء الغرباء:

(...الناس هناك أشكال وأنواع، فمنهم الأغنياء والفقراء، ومنهم اللصوص والمتسكعون... أما نحن فلا ننتمي إلى أية واحدة من هذه الفئات. إننا لا نستحي من واقع حالنا ما دمنا بالفعل معذبين في الأرض)[23].

ويستمر السارد في تعداد مظاهر العنصرية في قوله:

(...الجمركي الذي لم يفتح أية حقيبة من حقائب الفرنسيين بينما فتّش حقائب الركاب العرب كلهم. أما حقيبتي فقد سلمت من التفتيش لأن الجمركي حسبني فرنسيا، ويا ليته لم يفعل فكأنه وجه لي بذلك سبة)[24].

فالشخصية الأساسية بعد اطلاعها على حقيقة الأوضاع في فرنسا أصبحت تعتز بأصولها ونسبها على الرغم من معارضتها للعادات السائدة في قريتها.

4.ازدواجية الخطاب:

يُبرز مولود فرعون في موضع آخر اللثام عن المفارقة الموجودة بين الخطاب الرسمي الفرنسي المقدم في المدارس بالجزائر وبين الواقع المجحف الملتصق بحياة الجزائريين الذين يعتبرون غرباء عن فرنسا، يقول في هذا الصدد:

(هل يمكن لي أن أنسى ما تعلمته في المدرسة مما أنجزته فرنسا من مشاريع في التربية والقضاء والتقدم العلمي وغير ذلك من المظاهر الحضارية التي جعلتني أعجب بتفوق فرنسا... على أنني عندما سمعت الناس في فرنسا يقولون لي: عد إلى بلادك يا بيكو عندئذ أدركت أن لي وطنا وأنني سأعتبر دائما أجنبيا في غيره من الأوطان)[25].

فالحضارة التي تتباهى بها فرنسا موجهة فقط للفرنسيين وللأوربيين، وذلك تأكيد على أن السلطة الفرنسية تتعامل مع الجزائريين على أنهم غرباء حتى في وطنهم، لذلك لم يحاول عامر أن يستغل أصوله الفرنسية للاندماج مع الأوربيين بل فضل التمسك بأصوله الجزائرية، مصورا ظروف حياته في فرنسا بقوله:

(اسألوا أولادكم ممن كان معي في فرنسا فسيخبرونكم عن سيرتي في بلاد أخوالي وهل تكبرت على أبناء بلادي...اسألوهم، هل رضيت ولو مرة واحدة بالهوان وكيف كنت أنال حظي من الإهانة

على يد السلطات، وكيف كنت أقاسمهم المعيشة التعسة في الغرفة الحقيرة، ولقمة العيش المرة في باريس وفي غيرها من المدن)[26].

5.الانفصال عن الأهالي:

اهتم مولود فرعون بوصف كل ما له علاقة بمسألة الهجرة، فكانت للحظات فراق المهاجرين لعائلاتهم نصيب في الوصف محاولا تسجيل كل الظروف المحيطة بتلك اللحظات ليظهر بصورة جلية مدى الحسرة والألم اللذان يلمان بكلا الطرفين تعبيرا منه على أنّ الهجرة لم تكن أبدا اختيارية بل كانت دوما نتيجة حتمية لظروف قاهرة جعلت المواطنين مجبرين على القيام بها، حيث استهل الروائي حديثه عن لحظات الوداع بوصف الشخصية الرئيسية وهي تتأهب لمغادرة البيت مع أصدقائها موردا ما دار بينها وبين أمها بقوله على لسان عامر:

(...شعرت بلوعة الفراق وشدة الحزن، وأحسست على خدي قريبا من الأذن بمنطقة لا تزال مبللة ولعل دموع أمي هي التي بللتها ... طلبت من أمي بإلحاح ألا تخرج من الدار، وقلت لها بأنني رجل وأنه لا يجدر بها أن تكون كغيرها من النساء الحمق... أعاهدك يا أمي أن أكون رجلا بأتم معنى الكلمة، وأنت أيضا ستبرهنين أنك أفضل منهن جميعا. وأطلب منك أن تعلّمي والدة سعيد الصبر، فهي لا تكاد تسلو على فراق ابنها)[27].

ثم ينقلنا الروائي إلى الأحداث التي جرت في أسرة إحدى الشخصيات الثانوية في الرواية حيث يقول على لسانها:

(يا صاحبي، زوجتي لم تقبلني عند الوداع. هل هذا أمر طبيعي؟ ...رأيتها تدخل إلى غرفتها رائعة، ناعمة، كأنها صورة مريم العذراء، لكي تذرف دموعها وتبكي وحدها. إنها لم ترد أن تشارك أمي وأخواتي في النحيب: ليتها تعرف كم يعز علي فراقها... ولا يخفى عليها أن كل من يذهب إلى فرنسا لابد من أن يعاشر النساء... وأنا من ناحيتها فأنا مرتاح البال: ستكون عليها حراسة شديدة)[28].

فالروائي يختزل هنا بصورة سريعة طبيعة العلاقات التي تربط بين أفراد الأسرة القبائلية إلى جانب طريقة تصوّرها لنمط الحياة الجديدة التي سيحياها المهاجرون، ويتابع الروائي وصف الشخصيات الأخرى وهي تودع أقاربها على نحو قوله:

(ورأينا الشيخ دحمان قد أقبل من خلفنا، فبدا لنا طيفه كتلة ضخمة ثقيلة، وكان يسحب ولده الصغير الذي أخذ يبكي... ورأينا أيضا العم محمد الذي كانت عيناه الكرويتان كعيني الكبش الوديع، يشع منهما بريق عجيب، كأنهما ترفضان هذا الفراق، وكأنهما تريدان الهروب من وجهه الكئيب، للبقاء في الدار، برفقة زوجته وابنه الوحيد الذي رزق به بعد سنين من اليأس)[29].

إذ يربط الروائي في هذا المقطع مثلا بين المشاهد التراجيدية والكوميدية معا وكأن الحياة ما هي إلا مسرحية تتشابك فيها الأدوار وتختلط مع بعضها البعض. يقول الروائي مواصلا سرده عن كيفية استعداد المغتربين للسفر قائلا:

(...ستهبط من جميع القرى نفس النماذج البشرية من المغتربين ونفس الأشباح التي تبدو في الصباح الكئيب سوداء غير واضحة الملامح .. ستهبط منها نفس الوجوه النحيلة ذات الشفاه المتدلية والعيون المحرومة من النوم، وسيقبل كل واحد بنفس الحقيبة التي سودها الدخان، ونفس الرزمة من القماش الغليظ المحزومة بالخيط. وما لبثنا أن تكدسنا في السيارة واختلطت أنفاسنا وامتزجت أحلامنا وراح كل واحد منا يفكر في صمت. وهكذا هبط الموكب الحزين.. لا أتذكر بالضبط اسم القرية التي توقفت الحافلة فجأة فيها ليركب عدد من الرجال، وقد رافقتهم كثير من النساء الباكيات. ولا يزال ذلك المشهد مرتسما في ذهني إلى الآن) [30].

حيث حمّل الروائي هذا المشهد بصور توحي إلى الحالة المزرية التي يعاني منها المهاجرون، ويستمر السارد في وصف لحظات الوداع قائلا:

(...لم يبق سوى النساء والصبيان والشيوخ الذين أخذوا ينظرون إلينا مودعين حينما أقلعت الحافلة. إن المشهد كئيب، وثياب النساء كامدة الألوان، والوجوه نعسانة مكدودة، ولا أثر للابتسام عليها. تصوروا لوحة تمثل الشيخوخة والتعب والاستسلام والشقاء .. تصوروا جنبا إلى جنب عيونا انطفأ بريقها وأخرى تنهمر منها الدموع وأخرى يتطاير منها الشرر ويلمع فيها الأمل أو الغضب) [31].

فطريقة تصوير الروائي لمثل هذه المشاهد أين يجمع فيها مختلف علامات التعاسة والشقاء سواء عند المغتربين أو عند عائلاتهم تظهر إلى حد بعيد استسلام الجميع للقدر المحتوم وقبولهم -رغما عنهم- بضرورة اختيار الهجرة كسبيل وحيد للخروج من حالة الفقر المحيطة بهم، لكنه من جهة أخرى نجده يقول بكل صراحة وجرأة على لسان إحدى الشخصيات المودعة لأحد أقاربها معبرا عما يدور في خلدها من أفكار تنم عن وعي الأهل بالفارق الموجود بين الجزائر وفرنسا في قوله:

(لا تظنوا أننا أغبياء، بل نحن عارفون.. نحن نعرف أنكم تغادرون بلاد الجوع وتذهبون إلى جنة الدنيا، ولكنكم ستظلون في تلك الجنة غرباء وستضطرون للعودة إلى جحيم بلادكم ...ارحلوا عن هذه البلاد إذا شئتم فنحن نغبطكم على ما تفعلون. ولكن لن يكون مصيركم هناك سوى الكفاح المرير ومعيشة الضنك والتعاسة...كونوا على يقين أننا نحن - المعذبون في الأرض- نحتقركم لأنكم أنتم أيضا ستكونون في تلك الأرض معذبين، وإن كنتم تحاولون عبثا أن تتهربوا من مصيركم المحتوم) [32].

فهي صورة تعبّر عن التمسك بأمل وهمي لن يتحقق، فهم واعون بأن أبواب الجنة المرجوة لن تفتح للمهاجرين وسيكون مصيرهم مثل مصير الذين تركوهم في قراهم بالجزائر، ويقدّم في الإطار نفسه صورة عجوز تخاطب ابنها المهاجر وهي تتحدث إليه بكل عفوية عما يدور في ذهنها من أفكار:

(هيا، اركب وخذ مكانك في الحافلة وارحل عنا، ولتحمل معك حقدي كله لأولئك القوم السعداء الذين سيعتبرونك أنت -ولدي الوحيد- كالكلب بينهم ... ولتعرف أنني سأضمر لك الحقد الدفين إذا فكرت ذات يوم في التخلي عني. لا تغتر بالسعادة إذا قدر لك أن تكون سعيدا هناك، لأن سعادتك لا توجد إلا في هذه البلاد وفي كوخك الحقير بالقرب من أمك التي ليس لها أحد سواك ولا تعبأ بأحد في هذه الدنيا . اذهب أنت ومن معك. ارحلوا عنا كلكم أيها الجبناء ولتصحبكم لعنتي) [33].

6.تلاحم المغتربين:

يقدم الروائي مثالا عن تلاحم المغتربين مع بعضهم البعض أثناء المصائب حيث يعلن الروائي بصورة مفاجئة ومن دون أيّ مقدمات عن خبر وفاة صديق عامر قائلا:

(ولم تمض أربعة أيام على وصولنا حتى دفن سعيد في مقبرة بوبيني، وشيعه إلى مقره الأخير أبناء بلاده من إغيل نزمان.. ثم شاركت في تشييع جنازته . وأنا من هذه الناحية قمت بواجبي، والإخوان الذين جاءوا إلى المقبرة الإسلامية على ذلك شهود) [34].

إلا أن ذلك لم يشفع للشخصية الرئيسية من تأنيب ضميرها حيث تصوّرت رد فعل أهل المتوفى، محاولة استبعاد تحميلهم إياها سبب نكبتهم:

(...وذات يوم عدت إلى البلاد عارفا تمام المعرفة أنه لن يحاسبني أحد ولن يتجاسر ليقول لي: أين تركت أخاك؟ وماذا فعلت به؟ لولاك ما كان ليسافر إلى فرنسا ...أجب على هذا السؤال يا عميروش: أين تركت ولدي؟) [35].

وتحدث الروائي أيضا عن مسألة نقل جثامين المتوفين إلى أرض الوطن حيث يقول على لسان الشخصية الأساسية :

(كنا -نحن جماعة من ممثلي أبناء البلاد- قد تقابلنا في (مقهى ومطعم الكسكسي اللذيذ) لاتخاذ قرار، فأقنعتهم بأنه لا ينبغي أن يرسل الجثمان إلى أرض الوطن، بل يجب أن يدفن في باريس، وكنت متأكدا حينذاك أنني أجنّبهم مشاكل عويصة وأن أم سعيد لن تتحمل هذه الفاجعة الأليمة وأن الواجب يقضي أن نخبئ عنها خبر وفاة ابنها) [36].

فالشخصية الرئيسية لم ترد إضافة أعباء أخرى إليهم أو إلى أسرة الفقيد، بحكم معرفته بحالتهم المزرية، لذلك تم الاتفاق على دفن المغترب بفرنسا.

7.مصير أرملة المغترب:

تناول الروائي قضية أرامل المغتربين موضحا المصير الذي ينتظرنه متخذا زوجة سعيد أنموذجا لهن حيث يقول:

(...لكن هذه الصبية الحسناء قد انتهى أمرها: فلن تتزوج مني ولا من غيري. لن تتزوج في إغيل نزمان على كل حال لأنه لا يرغب فيها أحد. والأجدر بها أن تصبر على المصيبة التي حلت بها وأن تكون أكثر وفاء للمرحوم: فللناس آذان وألسنة وعيون وإذا حكموا على شخص فليس حكمهم من قبيل العبث. ثم عن هذه البنت التي توفي زوجها بعد أشهر قليلة من عقد الزواج تعتبر في نظر الجميع منحوسة. وما من شك أنه لن يرغب فيها أحد) (37).

فأرملة المهاجر لن تستطيع الزواج مجددا وكأنها المتسببة في وفاة زوجها الأمر الذي يجعلها تقضي بقية عمرها وحيدة لذنب لم تقترفه، فهو نقد من طرف الروائي لبعض المواقف السائدة في المجتمع القبائلي، وبالتالي المطالبة ضمنيا بتغييرها.

8.الهجرة كعقاب للمعمرين:

اتخذ الروائي من مسألة الهجرة موقفا آخر عبّر عنه في الرواية، حيث رأى أن المتسبب في الحالة المزرية التي يعيش فيها السكان الأصليون في الجزائر هو الاستعمار الفرنسي الذي دفع بهم إلى هجرة وطنهم بحثا عن لقمة العيش، بينما كان المستعمر في حقيقة الأمر في حاجة ماسة إلى الأيدي التي تخدم الأراضي التي انتزعت عنوة من الجزائريين وقدّمت كهدية للمعمرين، فإذا هاجرت الطبقة العاملة إلى فرنسا، فإن المعمرين لن يجدوا الأيادي التي ستعمل لديها وبالتالي، فإنها ستفلس لا محالة، يقول على لسان عامر:

(...وسوف أوصي جميع رفاقي بأن ينسوا أصلهم وفصلهم... وإذا رحلنا عن هذه البلاد، فسوف تسوء حالة من كان يستغلنا ويتنعم بعرق جبيننا، ولكن حالتنا سوف تتحسن) (38).

فالهجرة في نظر الروائي حتى وإن لم تحقق السعادة للمهاجرين، فهي على الأقل ستنتقم لهم من المعمرين الذين تسببوا في رحيلهم عن وطنهم.

خاتمة:

الملاحظ أن مولود فرعون بتناوله لقضية الهجرة في رواية الدروب الوعرة قد أقرّ ضمنيا بفشل السياسة الاستعمارية في التقريب بين الشعبين الجزائري والفرنسي، إلى جانب التذكير بالمعاناة التي يتكبّدها المهاجرون بأرض الغربة من دون أن ينسى معاناة أهاليهم بأرض الوطن نتيجة فراق ذويهم، وكان له تصوير ذلك في مشاهد ممزوجة بين الكوميديا والتراجيديا لتكون الصورة أشد وقعا على القراء، وإن كان حديثه منصبا على مهاجري قرى القبائل، فإن الرواية ببعدها الإنساني تمثل نموذجا لجميع

الشعوب المقهورة التي كانت تعاني من ويلات الاستعمار إلى جانب التعبير عن المصير المشترك لجميع المهاجرين الذين يعانون يوميا من ويلات التمييز العنصري وهم في كفاحهم من أجل لقمة العيش حيث يجمعهم المصير المشترك، مصير المعذبين في الأرض.

الهوامش:

[1] ينظر: الطاهر أوصديق: **ثورة 1871**، ترجمة: جباح مسعود، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص: 11 - 12.

[2] مصطفى الأشرف: **الجزائر الأمة والمجتمع**، ترجمة : حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص: 14 – 15.

[3] محمود قاسم: **الأدب العربي المكتوب بالفرنسية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1996، ص: 114.

[4] تعتبر هذه العبارة من بين أقواله المشهورة، للدلالة على أن اختيار اللغة الفرنسية كلغة كتابة لا تعني أبدا الانصهار في تقاليد وعادات المجتمع الفرنسي.

[5] أحمد منور: **الأدب الجزائري باللسان الفرنسي**، ديوان المطبوعات الجامعية،2007، ص: 266.

[6] Wadi Bouzar, **La Mouvance et la pause, Regard sur la société Algérienne**, SNED, 1983, P.124

[7] ورد هذا الوصف في أكثر من موضع في رواية الدروب الوعرة.

[8] Fanny Colonna, **Instituteurs Algériens 1883.1939**, Office des publications universitaires, Alger, 1975, P.172

[9] مولود فرعون: **نجل الفقير**، ترجمة محمد عجينة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1987.

[10] إسماعيل حاجم: **الصراع الحضاري في الرواية الفرانكفونية المغاربية**، دار الأمل، الجزائر، 2007، ص:60.

[11] مولود فرعون: **الأرض والدم**، ترجمة عبد الرزاق عبيد، دار تلانتيقيت للنشر، الجزائر، 2013.

[12] مولود فرعون: **الدروب الوعرة**، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسس الوطنية للكتاب، ط 05، 1990.

[13] **الدروب الوعرة**، ص: 170.

[14] Abdelkabir Khatibi, **Le roman Magrébin**, François Maspero, Paris, 1968, P.51.

[15] Jean Dejeux, **La Littérature Maghrébine d'expression Française**, Centre Culturel Français, Alger, 1970 , P.50.

[16] **الدروب الوعرة**، ص: 154.

[17] المصدر السابق، ص: 154.

[18] المصدر السابق، ص: 155.

[19] المصدر السابق، ص: 160.

[20] المصدر السابق، ص: 159.

[21] المصدر السابق، ص: 159.

[22] **الدروب الوعرة**، ص: 159 - 160.

[23] المصدر السابق، ص: 159.

[24] المصدر السابق، ص: 163.

[25] المصدر السابق، ص: 161.

[26] المصدر السابق، ص: 155.

[27] الدروب الوعرة، ص: 231.

[28] المصدر السابق، ص: 232.

[29] المصدر السابق، ص: 233 - 234.

[30] المصدر السابق، ص: 234.

[31] المصدر السابق، ص: 235.

[32] الدروب الوعرة، ص: 236 - 237.

[33] المصدر السابق، ص: 237.

[34] المصدر السابق، ص: 240.

[35] المصدر السابق، ص: 240.

[36] المصدر السابق، ص: 242.

[37] المصدر السابق، ص: 154.

[38] المصدر السابق، ص: 19.

قائمة المراجع:

1. أحمد، منور: **الأدب الجزائري باللسان الفرنسي**، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007.
2. إسماعيل، حاجم: **الصراع الحضاري في الرواية الفرانكفونية المغاربية**، دار الأمل، الجزائر، 2007.
3. الطاهر، أوصديق: **ثورة 1871**، ترجمة: جباح مسعود، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.
4. محمود، قاسم: **الأدب العربي المكتوب بالفرنسية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1996.
5. مصطفى، الأشرف: **الجزائر الأمة والمجتمع**، ترجمة: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
6. مولود فرعون: **الأرض والدم**، ترجمة عبد الرزاق عبيد، دار تلانتيقيت للنشر، الجزائر، 2013.
7. مولود فرعون: **نجل الفقير**، ترجمة محمد عجينة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1987.
8. مولود، فرعون: **الدروب الوعرة**، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسس الوطنية للكتاب، ط 05، 1990.
9. Abdelkabir Khatibi, **Le roman Magrébin**, François Maspero, Paris, 1968.
10. Fanny Colonna, **Instituteurs Algériens 1883.1939**, Office des publications universitaires, Alger, 1975.
11. Jean Dejeux, **La Littérature Maghrébine d'expression Française**, Centre Culturel Français, Alger, 1970 .
12. Wadi Bouzar, **La Mouvance et la pause, Regard sur la société Algérienne**, SNED, 1983.